التحليل النفسى والدراسات الاجتماعية

كتاب سنوى — المجلد الأول ١٩٤٧ — ص : ٤٢٧

Psychoanalysis and the Social Sciences,
An Annual - Vol. I. 1947. Pp. 427
Edited by G. Roheim (International Univ. Press. New York)

تلخيص بقلم
مصطفى اسماعيل سويف

تتلخص مهمة هذه الحولية فى إبراز وجهة نظر التحليل النفسى فى كل المباحث التى تقع ما بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع . ومن المعلوم أن الأنثروبولوجيا بالنسبة للمجتمعات البدائية كعلم الاجتماع بالنسبة للمجتمعات المشاركة فى الحضارة الحديثة . ومعنى ذلك أننا هنا بصدد أبحاث تبرز نظرة التحليل النفسى إلى كل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية فى صورتيها ، البدائية والمتحضرة . فبعضها يتناول الفولكلور (أو الأدب الشعبى) وبعضها يتناول الميثولوجيا والبعض يتناول الدين وأبحاث أخرى تتناول الفن وغيرها تتناول الأدب والتاريخ . ويوجه الناشر دعوته واضحة صريحة لكل أنثروبولوجى أن يساهم بما يجد فى ميدانه ، لأنه يرى أن هذا الميدان يفيد التحليل النفسى كثيراً بما يقدم لنا من معلومات عن موقف البدائيين من مشكلات الطفولة والأحلام والشخصية والجنون والناحية الجنسية . هذا إلى أنه هو نفسه يفيد بدوره من التحليل النفسى . وبذلك يمكن أن يقال إن التقريب بين هذين الطرفين يعود بالفائدة عليهما معاً . بل يمكن أن نذهب إلى حد القول بأن التقريب بين التحليل النفسى والأبحاث الاجتماعية بوجه عام يعود بالفائدة عليهما جميعاً . ويرجع الفضل فى الكشف عن هذا الرجاء إلى فرويد نفسه ، الذى كرس له كتاب « الطوطم والطابو » . وفى سبيل هذا الرجاء نفسه عمل كثير من تلامذته حتى الذين انشقوا عليه وفى مقدمتهم يونج C. G. Jung بل إن هذا الباحث قد بالغ فى توطيد أواصر الصلة بين التحليل النفسى (بمعنى أوسع من المعنى الفرويدى) وبين الأنثروبولوجيا ،

وذلك بأحاديثه فى اللاشعور الجمعى الموروث ، ومضمونه الذى يتألف مما أسماه « النماذج الرئيسية » archetypes[١]

والمجلد الذى نحن بصدده يتألف من ستة أقسام مرتبة ترتيباً تصاعدياً من حيث درجة التعقد والتكامل فى موضوع كل منها . فالقسم الأول فى الأنثربولوجيا والثانى فى الميثولوجيا والثالث فى الدين والرابع فى الأدب والخامس فى التاريخ والسادس فى علم الاجتماع . ومعظمها يضم أكثر من بحثين لباحثين مختلفين . وتتصدر المجلد مقدمة فى الصلة بين « التحليل النفسى والأنثروبولوجيا » بقلم جيزا روهايم ، حاول أن يتتبع فيها تاريخ القول بهذه الصلة ، ثم تقدم بمحاولته الخاصة فى الإبانة عن جوانب هذه الصلة والإفادة منها فى تكوين نواة لنظرية عن الحضارة من ناحية وعن جوهر الشخصية من ناحية أخرى . وقد رأينا أن نلخص للقارىء هذه المقدمة وبضع مقالات من عدة أقسام متفرقة من هذا المجلد ، حتى يقف بنفسه على بعض جوانب هذه الدعوة من حيث منهجها ونتائجها .

(١) « التحليل النفسى والأنثروبولوجيا » :

ساهم فى بحث هذا الموضوع فريق من المحللين النفسيين وفريق من الأنثروبولوجيين ومن الفريق الأول نذكر فرويد وأتو رانك وإرنست جونز ، ومن الفريق الثانى نذكر ريفرز وسليجمان ومالينوفسكى .

ولقد شيد فرويد بحثه فى « الطوطم والطابو » على دعائم أربعة :

ا — إن المقدس والمدنس كلاهما طابو (أى محرم مساسه) ، ونحن نشتهى ما نظهر أننا ننفر منه .

ب — إن الخوف الذى يبديه البدائيون ، من الاتصال الجنسى بالمحارم ليس سوى دفاع ضد الرغبة فيه .

جـ — إن المنتحبين على الميت إنما يعاقبون أنفسهم بهذا النحيب ، جزاء ما كانوا يحملون للميت من رغبات شريرة .

د — فى الأنثروبولوجيا وفى علم الاجتماع وفى بحث الحالات الفردية يجب أن نضع نصب أعيننا هذه الحقيقة الهامة ، وهى أن كل العلاقات الإنسانية تحمل التناقض فى نفسها .

---

(١) يمكن الرجوع إلى مقالنا الذى نشرناه فى هذه المجلة بعنوان «التحليل النفس والفنان» مجلد ٢ — عدد ٢

وقد قدم فرويد فى الفصل الرابع من هذا البحث نظريته فى الطوطمية . فالحيوان الطوطم رمز الأب . ورجال الآل (أو العشيرة البدائية) أبناؤه ، أما النساء فزوجاته . ولذلك كان محرماً على رجال الآل أن يتزوجوا من نساء الآل نفسه ، فكان الزواج « إجزوجاميا » . لأنه لو حدث العكس لكان معنى ذلك أنهم تزوجوا زوجات أبيهم (الطوطم) ، وهذا محرم . ومن ثم فقد استنتج فرويد أن الطوطمية تقوم على عقدة أوديب .

كذلك قدم فرويد فى هذا الكتاب أراءه فيما يتعلق بالسحر والإسقاط وأصل الأشباح وما إلى ذلك من موضوعات تعتبر فرعية بالنسبة لموضوعه الرئيسى الذى كشف فيه عن الأهمية الكبرى للعقدة الأوديبية كمفتاح لفهم جوانب الحياة الاجتماعية على اختلافها .

وبعد فرويد نذكر أوتو رانك Otto Rank الذى اهتم ببحث موضوع المحارم من حيث أنه شائع فى الشعر والأساطير . وإرنست جونز Ernest Jones الذى تحدث فى موضوعنا مباشرة وذلك فى مقاله الموسوم « التحليل النفسى والأنثروبولوجيا » . على أن موقف الأنثروبولوجيا من هذا الموضوع مؤسف حقاً . فهم يرفضونه وينفرون منه . وربما كان صاحب هذا المقال (جيزا روهايم) هو وحده الذى يقبله بلا قيد ولا شرط . ومن الإنصاف أن نذكر بالخير ريفرز W.H. Rivers الأنثروبولوجى الإنجليزى ، لمقاله الذى نشره بعنوان « الأحلام والحضارة البدائية » ، (عام ١٩١٧) ، فكان مشجعاً إلى حد بعيد ، وتبعه سليجمان C.G. Seligman وهو إنجليزى أيضاً ، إذ نشر مقالا فى « الأنثروبولوجيا وعلم النفس » ، (عام ١٩٢٤) . أما فى أمريكا فقد جعل سابير Sapir يؤكد ضرورة التعاون بين الأنثروبولوجيا والطب العقلى ، لكنه رفض التحليل النفسى . وفى عام ١٩٣٥ نشرت روت بندكت R. Benedict كتاباً بعنوان « نماذج الحضارة » ، حاولت فيه أن تقيم رأيها على أساس النظرة الجشطلتية وآراء اشبنجلر . غير أن هذه المحاولة منها للإفادة من علم النفس لم تكن لتحول بينها وبين تأليه المجتمع كما هى عادة الباحثين الاجتماعيين . فتفسر الظواهر الفردية بعلل اجتماعية . والرأى عند صاحب المقال أن العكس أقرب إلى الصحة . فإن الظاهرة الأكثر تعقدا وتكاملا تفسر بالظاهرة الأشد بساطة لا العكس . وقد كان هربرت سبنسر H. Spencer يرى أن علم الاجتماع يجب أن يقوم على أسس سيكولوجية . وينتهى الباحث من هذا

العرض إلى ذكر موقف مالينوفسكي B. Malinowski ، الذى يمتاز ببحوثه العملية فاستطاع أن يقدم لنا وثائق هامة ، لكنه عند ما حاول أن يختبر نظرية فرويد فى الأحلام أخطأ فى فهمها وفى تطبيقها .

والواقع أن كثيراً من الأنثروبولوجيين يستخدمون المصطلحات الفرويدية دون أن يفقهوا معناها ، ولكن الباحث لا يعدم الأمل فى المستقبل . على أنه يشترط للشخص الذى يستطيع أن يقوم بسبر الوراء اللاشعورى للحضارة أن يكون هو نفسه قد حلل تحليلا نفسياً كما هو الشرط لكل المحللين . وهذا وحده لا يكفى بل يجب كذلك أن يكون الشخص من أولئك الذين يمارسون التحليل بأنفسهم ، حتى ينال الكثير من الخبرة والمران . ولا يكفى أن نقيم نظرياتنا الأنثروبولوجية على تحليل الأحلام وحدها ، بل يجب أن نجرى تحليلا علاجياً عاماً للبدائى ، ولا يستطيع أن يقوم بهذا العمل إلا من كان يعمل على مقربة من البدائيين فعلا ، كما هى حال ولف ساكس W. Sachs .

وقد قدم الباحث فى هذا المقال طرفاً من الآراء التى انتهى إليها هو نفسه فى الأسس النفسية لاتجاه الحضارة وفى الشخصية الأساسية ؛ وهى مقامة على أساس المشاهدة الواقعية أولا وقبل كل شىء . وفيما يلى تلخيص لمقال آخر للباحث نفسه ، فى « تحليل الأحلام والبحث التجريبى من الأنثروبولوجيا » ، ومنه نتبين منهجه فى جمع مادة البحث وتحليلها .

٢ — « تحليل الأحلام والبحث التجريبى فى الأنثروبولوجيا » :

لا شك أن لتحليل أحلام البدائيين أهمية كبرى بالنسبة للأنثروبولوجيا . وقد اقترب من هذا الرأى معظم الأنثروبولوجيين من المدرسة القديمة ، وألحوا على نقطتين :

(ا) الأحلام كمنبع للاعتقادات الحيوية .

(ب) كيف يؤول البدائيون أحلامهم .

وحديثاً نرى سليجمان يؤكد هذه الأهمية فى مقاله عن « الأنثروبولوجيا وعلم النفس » ، وقد انتهى فيه إلى أن الآليات الأساسية لدى غير الأوروبيين ، حتى المتوحشين والمتبربرين ، هى نفسها القائمة عند الأوروبيين .

أما محاولة جيزا روهايم فتتلخص فى جمع عدد من الأحلام لشخصيتين بدائيتين فى أوستراليا الوسطى ، وتحليل هذه الأحلام بالاستعانة بالتداعيات التى ترد إلى

ذهن الشخص فيما يتعلق ببعض المشاهد أو الأشخاص فى حلمه . ويعلق الباحث أهمية كبرى على مثل هذا التحليل .

(ا) فالتداعيات تمدنا ببعض المعلومات الإثنولوجية .

(ب) والأحلام تكشف عن المعنى اللاشعورى للنظم الاجتماعية .

(جـ) أضف إلى ذلك أن أبحاث التحليل النفسى تستطيع أن تفيد من هذا الاتجاه أيضاً .

ويؤكد الباحث أن الحلم إذا صحبته التداعيات فقد أمكن تأويله ولو لم نكن نعرف من قبل شيئاً عن الوراء الحضارى لصاحبه . ذلك لأن طراز الحلم ليس محدداً بطراز الحضارة التى أنجبت صاحبه ، كما أنه ليس للنوم سوى طريقة واحدة لدى أفراد البشرية جميعاً .

أما عن الأحلام التى أوردها الباحث ، فقد أورد أربعة عشر حلماً لشخص يدعى رامورامو ، وسبعة أحلام لشخص آخر يدعى كاوانامو ، وصحب كل حلم بالتداعيات الخاصة به ثم قدم تأويله . ومع هذه الأحلام قدم تقريراً مفصلا عن الظروف المحيطة بالشخص . أعنى وضعه الاجتماعى وعلاقته بالباحث نفسه . ثم تساءل بعد ذلك ، ماذا نفيد من هاتين الحالتين فيما يتعلق بالنظم والمعتقدات ؟ وجعل يحاول العثور على مفتاح لفهم السحر والأسطورة المصاحبة للطقوس .

هذا نموذج للبحث التحليلى التجريبى كما ينبغى أن يكون ، وهو على هذه الصورة ذو فائدة محققة للكشف عن الأسس النفسية للنظم الاجتماعية المختلفة .

والصلة بين المثولوجيا والتحليل النفسى فى غير حاجة إلى زيادة من الإيضاح . والاكتشاف الرئيسى فى هذا الميدان يستمد اسمه من أسطورة أوديب . وإليك خلاصة مقال عن أسطورة الفتى الوسيم « نرجس » ، لترى مدى دلالتها السيكولوجية .

٣ — « نرجس : ملاحظة تحليلية » :

بقلم هنرى ألدن بنكر H.A. Bunker .

جوهر الأسطورة الإغريقية أن الفتى « نرجس » ، أشد الفتيان رشاقة وجمالا ، متلأ بحب صورته التى رآها تنعكس على صفحة الماء ، فظل على الشاطئ يتأملها حتى ضمر ومات . ويقال إن أفروديت ربة الجمال و« جمّاعة البنفسج » ، عرضت عليه حبها فرفضه .

هذه هى الأسطورة . ولعلنا إذا ذكرنا ملاحظة فرويد عن النرجسية أن ندرك ما لهذه الأسطورة من دلالة سيكولوجية عميقة . فقد قال فرويد إن الأنا يسقط جزءاً من الليبيدو على الأشياء ، فيتعلق بها ، ولا يستطيع أن يحمله بمفرده وإلا انتابه المرض . وقد حمل نرجس الليبيدو على شبحه (أى على نفسه) ، ورفض أن يسقط بعضه على أفروديت ، فكانت النتيجة أن مرض ومات .

كذلك أسطورة بسيشه وكيوبيد ، تكشف لنا عن هذه العلاقة الدقيقة بين النرجسية والموت (أو ما يشبهه كالسبات) . فقد راحت بسيشه تبحث عن كيوبيد الذى اختفى . وقضت عليها فينوس بأن تقوم بمهمة شاقة جداً ، وهى أن تجلب « صندوق الجمال » من أعماق الأرض المظلمة . واندفعت بسيشه تصدع بالأمر . وفيما هى عائدة بالصندوق فتحته لترى ما به ، فلم تشهد جمالا ولكنها شهدت نوماً كأنه الموت . وقد غلبها عبق الجمال فاستسلمت هى الأخرى للسبات . وهنا نجد رمزا نرجسياً . وقد ظلت نائمة حتى أيقظها سهم كيوبيد ، أى عند ما أسقط الليبيدو على موضوع خارجى[1] .

ويحتوى القسم الخاص بالدين على أربع مقالات مختلفة لكتاب مختلفين ، نكتفى بأن نشير إلى خلاصة إحداها ، وهى بعنوان « وجوه جديدة للتجربة الدينية » .

٤ — « وجوه جديدة للتجربة الدينية : من وليم جيمس إلى سيجموند فرويد »

بقلم إدوارد هيتشمان E. Hitschmann .

يتناول الكاتب هذا الموضوع من وجهة نظر التحليل النفسى ، ويقتصر على هذا الجانب دون الجوانب الاجتماعية والتاريخية والحضارية للمشكلة . فهو يريد أن يؤكد أهمية عقدة أوديب فى تحديد طرز الشخصية والعصاب والاتجاهات الدينية . لذلك نراه يعرض لنماذج من الشخصيات يبرز فيها العلاقة بين عقدة أوديب وبين الموقف الدينى للشخصية .

ومن النماذج التى عرض لها شخصية صمويل جونسون S. Johnson الذى قضى فترة من صباه فى تمرد على الدين نتيجة لكراهيته لأبيه هذه الكراهية المترتبة على عقدة أوديب : لكنه لم يلبث أن ارتد قديساً ورعاً : والنقطة الهامة أن تدنيه

(١) يمكن الرجوع فى هذا الصدد إلى المقال الذى نشره الأستاذ احمد أبو زيد فى هذه المجلة بعنوان « التحليل النفسى للأساطير » عدد اكتوبر ١٩٤٦

كان ينحصر فى الخوف من جهنم « كابوس حياته » .

وكذلك عرض لشخصية شوبنهور ، الذى تمرد على أبيه الصلب كما تمرد على حب أمه ، وأصبح ملحدا متشائماً ، لكنه بقى متعلقاً « بالقديس » كمثل أعلى . وقد كانت طفولة هذا الفيلسوف شقية ، حتى لقد أمضى سنتين خارج حدود الأسرة اعتبرهما أسعد أوقات هذه الطفولة . وتكشف شخصية شوبنهور عن نوع من الحصر والشعور بالخطيئة وبعض الأعراض الوسواسية كما أنه ظل يعانى من رغبات جنسية عارمة مكبوتة . والمنبع الآخر لتشاؤمه هو هذا الشعور العميق بخيبة الأمل عند ما تغير سلوك أمه نحوه وفضلت عليه الحياة مع محبيها . ولقد كان طبيعياً أن يبدى شوبنهور تمرده على الدين مبكراً ، ولكنه ظل يأمل فى المثل الأعلى وهو القديس ، وقد وصفه بأنه من يستطيع أن يتغلب على الإرادة والبغض والرغبة الجنسية

عرض المؤلف أيضاً لشخصية أوجست كونت A. Conte الذى كرس اثنى عشر عاماً من حياته للنظر فى حكمة عصره ومضمونها الموضوعى ، مبعدا جوانبها اللاهوتية والميتافيزيقية . غير أن كونت قد عانى بعد ذلك تغيراً حاسماً فى شخصيته وانقلب من العلم إلى الإيمان . وقد أثر ذلك من فلسفته أثراً لا يمكن إنكاره . وقد كان كونت ذهانياً فى الثامنة والعشرين من عمره ، ووقع الطلاق بينه وبين زوجه فى الرابعة والأربعين . ثم أحب فتاة أخرى فكانت مصدر انقلابه إلى الدين من جديد . وقد ماتت الفتاة بعد سنة قضياها سويا . وهنا تقهقر كونت إلى طفولته ، إلى الأم حيث الاقتناع بلا سبب ، وحيث الكاثوليكية .

وقد عرض المؤلف لعدة شخصيات أخرى مثل جوته وكيركجارد وفرويد وغاندى ووليم جيمس وغيرهم ، وهذه كلها أمثلة دقيقة على صحة رأى فرويد القائل بأن موقفنا الدينى يتحدد بمشكلات طفولتنا . كما عقد مقارنة خصبة وموجزة بين رأى فرويد ورأى وليم جيمس فى هذه الناحية الهامة من نواحى حياتنا النفسية .

٥ — نكتفى بعد ذلك بالإشارة إلى القسم الخاص بالأدب . وهو يحتوى على مقالين ، أحدهما بقلم إدموند برجلر E. Bergler بعنوان « التحليل النفسى للكتاب والخصوبة الأدبية » ، والآخر بقلم كلارنس أوبرندورف C.P. Oberndorf بعنوان « التحليل النفسى فى الأدب وقيمته العلاجية » . وفى المقال الأول عرض لمعظم النظريات التحليلية التى قيلت فى تفسير ديناميات الإبداع الفنى ونقد للفكرة الرئيسية التى قدمت فيها جميعاً ومؤداها أن الأديب يجد فى التأليف الأدبى فرصة طيبة

للكشف عن بعض جوانب العقدة الأوديبية التى تكاد تمضى به نحو العصاب بما تسببه من ضغط لاشعورى على الجانب الشعورى من حياته النفسية . ثم يمضى الكاتب نحو تقديم تفسير تحليلى جديد مؤداه أن الأديب لا يكشف فى أدبه عن رغباته اللاشعورية التى تسبب له الحصر ، بل الواقع أنه يكشف عن وسائله فى الدفاع ضد هذه الرغبات . أما هذه الرغبات فعلا فلا يسمح بالكشف عنها أبداً . فإذا كان بعض الأدباء والشعراء خاصة قد كشفوا فى أعمالهم عن بعض الرغبات الأوديبية ، ويضرب المثل فى هذا الصدد باستندال Stendhal بوجه خاص ، فليس معنى ذلك أن هذه الرغبات هى التى تتمرد عليهم فى أعماقهم اللاشعورية فعلا ، بل الواقع أن البوح بها وسيلة للصمود فى وجه رغبات أخرى أشد انغماساً فى اللاشعور والأديب يستعين بكل الوسائل لإغلاق أبواب الشعور دونها ، حتى ولو كان من هذه الوسائل البوح ببعض الرغبات الأوديبية لتخفيف الضغط اللاشعورى ومواجهته فى جانب واحد منه . أما ما هى هذه الرغبة اللاشعورية التى يجهد الأديب كل هذا الجهد لإخفائها ، فتلك هى الرغبة فى « الاطلاع » . وهى أشد تقهقراً فى سلم الارتقاء الشهوى للفرد من أية رغبة أخرى ، لأنها ترجع إلى المرحلة الفمية oral أولى مراحل هذا الارتقاء . ويشفع الكاتب رأيه هذا بعدة وثائق حصل عليها من تحليله لعدة أدباء تحليلا نفسياً مباشراً دون الاقتصار على تحليل أعمالهم .

وفى المقال الثانى يعرض الكاتب للرأى الشائع عن أن الأديب يستطيع أن يتخذ من التأليف الأدبى وسيلة لشفاء نفسه من كثير من ضروب العصاب ، لأنه يكشف فى أدبه عن كثير من نواحى حصره ، كما نعترف للمحلل النفسى بكثير من متاعبنا ورغباتنا التى تسبب هذه المتاعب . ولعل ما أشاع هذا الرأى هو انتشار الأعراض العصابية فى الأعمال الأدبية بشكل واضح . بل لقد أشار بعض الكتاب مثل سومرست موم S. Maughan فى بعض أقاصيصهم إلى هذا الرأى وعمد فعلا إلى تأليف القصص السيكولوجية . غير أن الملاحظة العابرة كفيلة بأن تكشف لنا عن فشلهم ، ولو أن الأمر لم يكن قد جرى على هذا النحو لما وجدناهم يعودون بين الحين والحين إلى التأليف الأدبى يكررون فيه الكشف عن هذه الأعراض العصابية . ولعل أوضح الأمثلة على هذا الفشل كولردج الشاعر الإنجليزى وإدجار ألان بو الشاعر الأمريكى وبودلير الشاعر الفرنسى . وقد عنى كثير من المحللين النفسيين بتتبع مواضع الشبه بين الأعمال الفنية والأعراض العصابية ، نذكر من

بينهم فرويد نفسه وإرنست جونز وهانز ساكس وشارل بودوان وبريل ، لكن قلما وجد المحلل الذى يهتم بأثر التأليف الأدبى فى الحالة النفسية للمؤلف . وهكذا يعنى هذا الكاتب بإلقاء الضوء على هذا الجانب الذى ترك مظلماً ، ويتخذ من حالة ناثانيال هوثورن N. Hawthorne أول روائى أمريكى ممتاز ، مثالا لدراسة مفصلة بعض الشىء ينتهى منها إلى إثبات خطأ ذلك الرأى الشائع عن المهمة العلاجية للتأليف الأدبى . ويرجع ذلك إلى أن الاعتراف وحده لا يكفى ، بل يلزمه التحليل النقدى الذى يقوم به المحلل ، إذ ينبه الشخص من حين لآخر إلى الحوافز اللاشعورية التى تكمن وراء هذه الإشارة أو ذاك الرمز وما يقصد أن يعبر عنه فعلا أو يخفيه ، وهذا ما لا تتسع له الرواية لأن الشخصية الروائية يجب أن تظل دوافعها اللاشعورية كامنة فى الخفاء تحركها كما تحركنا دوافعنا فى حياتنا الواقعية .

هذه خلاصة لبعض المقالات فى حولية « التحليل النفسى والدراسات الاجتماعية » لم يقصد بها الإلمام بكل ما ورد فى هذه المقالات ، بل قصد بها إبراز بعض الجوانب الهامة والمبتكرة فى هذه البحوث .

مصطفى اسماعيل سويف